

إعراب شواهد قرآنية أو شعرية، تبللت فيها الألسن واضطربت الآراء، ومرد ذلك أنها معزولة عن سياقاتها العامة في القرآن الكريم أو في القصيدة المنظومة.

والتسييق ليس يختص بالجانب اللساني اللغوي فحسب، بل يتعداه إلى مستوى آخر أكبر ويجاوزه، وهو السياق المقامي، وفكرة المقام هذه هي المركز الذي يدور حوله علم الدلالة الوصفية وكذا التداوليات في الوقت الحاضر، وهو الأساس الذي يتأسس عليه الشق الاجتماعي من وجوه المعنى، وهو الذي تتمثل فيه العلاقات والأحداث والظروف الاجتماعية التي تسود ساعة أداء المقال⁽²⁾.

ويذهب الدكتور طه عبد الرحمن إلى أن "القول الطبيعي مجردا عن مقامه تصوير محامله كثيرة، ولا يتعين واحد منها إلا بتعيين المقام، حتى إنه يصح الادعاء بأن الأصل في القول الطبيعي أن تتعدد معانيه إلى أن يثبت بالدليل خلاف ذلك، وإذا كان كذلك، فقد وجب أن تكون صورته الممكنة متعددة، وأن لا ينحصر تقويمها في حتمية واحدة"⁽³⁾.

وإذا ما عدنا لسيبويه فإننا نجد ما يؤكد دعوانا التي سبقت، جاء في (هذا باب ما يضمن فيه الفعل المستعمل إظهاره في غير الأمر والنهي): "... وذلك قولك إذا رأيت رجلا متوجها وجهة الحاج، قاصدا في هيئة الحاج، فقلت:

(مَكَّةَ وَرَبَّ الكَعْبَةِ)

حيث زَكَنْتَ أنه يريد مكة، كأنك قلت: (يُرِيدُ مَكَّةَ وَاللَّهِ)، أورايت رجلا يسدد سهمها قبل القرطاس، فقلت:

(الْقُرْطَاسَ وَاللَّهِ)

أي: يُصِيبُ الْقُرْطَاسَ، وإذا سمعت وَقَعَ السهم في القرطاس، فقلت:

(الْقُرْطَاسَ وَاللَّهِ)

أي: أصاب القرطاس، ولو رأيت ناسا ينظرون الهلال، وأنت منهم بعيد فكبروا، لقلت:

(الهلالَ وَرَبَّ الكَعْبَةِ)

أي أبصروا الهلال، أو رأيت ضربا فقلت على وجه التفاؤل:

(عَبْدُ اللَّهِ)

أي يقع بعبد الله، أو بعبد الله يكون"⁽⁴⁾.

فأنت كما ترى لا يمكنك التصرف بالإعراب في هذه الأقوال الطبيعية أو الملفوظات إلا داخل سياقاتها ومقاماتها التداولية التي نص عليها سيبويه رحمه الله، حيث تترايط المكونات التي تشكل عملية التواصل Communication Process، بين أفراد المجتمع، وتكشف عن بنائية السلوك اللغوي Structural of verbal behaviour⁽⁵⁾.

وجملة هذه الأقوال لو تفحصتها لوجدتها تفتقر إلى التسييق

إدريس مقبول
المركز التربوي الجهوي
مكلاس، المغرب

سيميائيات التواصل

في نحو سيبويه

إذا جاز تقسيم الأنحاء برمتها إلى نمطين : أنحاء صورية تعتبر أن اللغات الطبيعية أنساق مجردة يمكن دراسة بنيتها بمعزل عن وظيفتها في التواصل داخل المجتمع المستعمل لها. وأنحاء وظيفية ترى أن بنية أي لغة طبيعية لا يمكن فصلها عن وظيفتها التواصلية، فإن نحو سيبويه لمن يتأمله ويغوص فيه يجده نحوا وظيفيا⁽¹⁾ وتداوليا بامتياز وذلك أنه نسق منتظم للسان العربي مبني على رعاية الأركان الخارج لسانية المتدخلة في بناء اللغة العربية وتوجيه الدلالات التواصلية من قبيل المتكلم والمخاطب والسياق التخاطبي ومقاصد المتخاطبين واستلزمات الحوار، وهو عين ما اهتم به أكثر من اتجاه في المدرسة الوظيفية المعاصرة. وقولنا بهذا الضرب من التناظر أو التقارب لا نعني به أسبقية أو تقدما بقدر ما نحرص على لفت الانتباه إلى أن نحو سيبويه كان يمثل علم العربية الذي لم يعيش طويلا ولم يستمر بعد سيبويه، بل دخل النحو مرحلة المدرسية (الإسكولائية) التي استلزمت تفرق مستوياته على ما عرف في تاريخ التأليف بالصرف والنحو والتجويد والمعاني والبيان وغيرها من مناحي المعرفة اللسانية المتخصصة. ولقد أتى على النحو حين من الدهر ضاق فيه حتى صار تفسيراً وإعراباً ووصفاً لأمثلة معزولة عن سياقاتها وشواهد مقطوعة عن مقاماتها التواصلية التي هي ماء حياتها. فصار مادة جامدة خامدة بعد أن كان تداوليا حيا.

في هذه الورقة سنحاول تسليط الضوء على جانب مهم من الدراسة النحوية بالمعنى السيبويهي الموسع أي الوظيفي الذي نجد فيه اللغة العربية وجهازها النظري التفسيري متقدما بحيث يشمل مساحات من الظواهر التواصلية غير اللفظية المصاحبة للظواهر التواصلية اللفظية والتي لم يمنع الاشتغال بالنحو الاهتمام بها وجعلها من صميم مفهوم النحو السيبويهي.

تقديم:

إن عزل المتن اللغوي - فيما نعتقد - عن سياقه هو بمنزلة فصله عن ماء حياته، فلکم هي المواقف التي مرت بنا أثناء

كَأَنَّكَ قُلْتَ: ذَاكَ عَبْدُ اللَّهِ، أَوْ هَذَا عَبْدُ اللَّهِ، أَوْ سَمِعْتُ صَوْتًا، فَعَرَفْتُ صَاحِبَ الصَّوْتِ، فَصَارَ آيَةً لَكَ عَلَى مَعْرِفَتِهِ، فَقُلْتَ:

(زَيْدٌ وَرَبِّي)

أَوْ مَسَسْتُ جِلْدًا، أَوْ شَمَمْتُ رِيحًا، فَقُلْتَ:

(زَيْدٌ) أَوْ (الْمَسْكُ)

أَوْ ذُقْتُ طَعَامًا، فَقُلْتَ:

(الْعَسَلُ)

وَلَوْ حَدَّثْتَ عَنْ شَمَائِلِ رَجُلٍ، فَصَارَ آيَةً لَكَ عَلَى مَعْرِفَتِهِ، لَقُلْتَ:

(عَبْدُ اللَّهِ)

كَأَنَّ رَجُلًا قَالَ:

مَرَرْتُ بِرَجُلٍ رَاحِمٍ لِّلْمَسَاكِينِ، بَارٌّ بِوَالِدَيْهِ

فَقُلْتَ: فَلَانٌ وَاللَّهِ⁽¹¹⁾.

اعلم أن سيبويه شديد العناية فيما يأتي به من أمثلة تداولية بأمر التنصيص على قضية أشكال التواصل بمختلف أبعادها حتى لتراه يدقق في بعض التفاصيل التداولية الواقعية التي تتحكم في إنشاء الكلام وإنجازه، وتسهم من وجه ثان في تفسيره وتأويله. فتجد في هذا النص السالف الذكر من هذه الأشكال التواصلية اللاشفوية⁽¹²⁾:

❖ التواصل البصري، وهو واسع جدا، والحاسة فيه هي العين المبصرة التي تنقل المعلومات عبارة عن شفرات إلى جهاز فك التشفير في المخ، ويتمثل التواصل البصري في الفنون البصرية مثل نظام الخط والكتابة والرسم والنحت، ويدخل فيه ما أورده سيبويه من آليات التعرف على الأشخاص من خلال صورهم وبعض علاماتهم (رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشخص، فقلت: عَبْدُ اللَّهِ وَرَبِّي).

❖ التواصل السمعي، التواصل السمعي هام ومركزي، لأنه كما هو معلوم من فقد حاسة السمع فولد أصم، كان أبكم بالتبع، ويتمثل التواصل السمعي في الموسيقى والغناء إلى جانب الكلام، ويدخل فيه آليات التعرف على الأشخاص من خلال أصواتهم (سمعت صوتا، فعرفت صاحب الصوت، فصار آية لك على معرفته، فقلت: زَيْدٌ وَرَبِّي).

❖ التواصل اللمسي، وهو أول أشكال الإدراك يبدأه الطفل مع أمه ومع الأشياء المحيطة به، وهذا الشكل من التواصل ينمو مع الإنسان ويتجدد من خلال السياق الثقافي الذي يعيش فيه، وقول سيبويه (مسست جلدا، فقلت: زيد) يؤكد هذا النوع من التواصل الذي يشترك مع التواصل اللغوي ويظهر على سبيل المثال في كيفية اللمس Touch وتحديد أجزاء الجسم الملموسة، كما نرى في المصافحة باليد، أو نظام أبجدية المكفوفين الذي يعتمد على اللمس بالأصابع.

الذي يرفع اللبس⁽⁶⁾ والغموض عنها، وينقعه في ماء حياتها لتتضح وتجلي، قال شارح الكتاب: "فهذا من الباب الذي يجوز إظهار الفعل فيه وإضماره لحال حاضرة ودلالة بيّنة"⁽⁷⁾، وليست الحال الحاضرة سوى السياق المقامي.

ولولا الإشارات التواصلية والإيماءات المصاحبة⁽⁸⁾، وهي موضوع عناية عند السيميائيين التداوليين وعلماء الإناسة، لما وجدنا إلى فهم الملفوظات سبيلا.

إن المحذوف المقدر في مثل هذه الأقوال الطبيعية يتعلق استحضاره بعناصر متعددة، منها وضعية المتكلم والمخاطب، تجاورهما Proximity وموقعهما من مرجع خطابهما أو الموضوع، والعالم الخارجي (أي المعلومات الحاصلة على الواقع والتي تساعد المستدل على بناء دليله بوجه يستفاد منه أن المقصود هو معنى لم يتناوله اللفظ بالنطق، كما أنها تساعد المستمع على تبين مراد المتكلم، وكذا المعرفة المشتركة Mutual Knowledge⁽⁹⁾ التي تفضي للدلالة البيئة،

القول الطبيعي	السياق المقامي التواصل	وضعية المتكلم	حاسة رصده	التقدير
- مكة ورب الكعبة	شخص متوجه وجهة الحجاج ويتزيى بسزي الأحرار	حاضر قريب	الرؤية بالعين	يريد مكة والله
- القرطاس والله	رجل يسددها صوب القرطاس	حاضر قريب	الرؤية بالعين	يصب القرطاس
- القرطاس والله	رجل أصاب بسهمه القرطاس	حاضر قريب	السمع بالأذن	أصاب القرطاس
- الهلال ورب الكعبة	ناس ينظرون الهلال، ويكبرون	حاضر بعيد	الرؤية بالعين والسمع بالأذن	أبصروا الهلال
- عبد الله	أحمد الناس يقع عليه الضرب	حاضر قريب	الرؤية بالعين	يقع بعيد الله، أو بعيد الله يكون.

وهي جملة من الاعتقادات والتصورات عن الذات والغير والأشياء والمعاني، يشترك فيها المتكلم والمخاطب مع جمهور الناطقين، وهي أنواع: لغوية وثقافية وعملية وحوارية⁽¹⁰⁾.

مثال آخر جاء في (هذا باب يكون المبتدأ فيه مضمرا، ويكون المبني عليه مظهرا)، حيث يضعك سيبويه أولا في السياق المقامي قبل أن ينصرف لتحليل الأقوال الإضمارية ويبين كيف استقامت، "وذلك أنك رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشخص، فقلت:

(عَبْدُ اللَّهِ وَرَبِّي)

- 3- الحضور (وهم أشخاص مستمعون حاضرون يساهم حضورهم في تخصيص الفعل الكلامي).
- 4- الموضوع (وهو محور الحديث أو الفعل الكلامي).
- 5- المقام (ويدخل فيه زمان ومكان الحدث التواصل، وكذا العلاقات الفيزيائية بين المتفاعلين بالنظر إلى الإشارات والإيماءات وتعبيرات الوجه).
- 6- القناة (وقد تكون كلاماً أو كتابة أو إشارة).
- 7- النظام (وهي اللغة أو اللهجة أو الأسلوب المستعمل).
- 8- شكل الرسالة (دردشة، حوار، جدال، موعظة، خرافة، ...).
- 9- المفتاح (وهو تقديم للرسالة وحكم عليها).
- 10- الغرض (أي أن ما يقصده المشاركون ينبغي أن يكون نتيجة الفعل التواصل).

ونحن إذا بحثنا عن عدد تردد هذه الخصائص في النظر النحوي عند سيبويه، فإننا سنجد عدداً لا بأس به منها بحسب طبيعة الموضوع والحاجة للبيان والتقدير، وارتباطاً بالنص السالف الذكر، وهو مثال سياقي Contextual exemple، فإنه قد توفر لدينا:

- المرسل: المتكلم (الذي رأى / سمع / شم / مس).
- الحضور: الناس الذين (ينظرون الهلال + يكبرون).
- الموضوع: الضرب / الصوم / إلخ.
- المقام: أنت منهم بعيد / يصوب السهم / مس الجلد / شم الريح (ثم أوقات هذه الأفعال التي تفهم اقتضاء واستلزاماً أنها بالنهار أو الليل بالنسبة لمن يراقب الهلال).
- القناة: كلام (الحديث عن الشمائل / الإشارة (فصار آية لك...)).
- النظام: أسلوب الحذف.

إننا نفترض أن النحو عند سيبويه غير مستقل بنفسه، وأن قوانين اللغة المنتجة للملفوظات مدعوة لكي تكتسب الصحة الدلالية والتداولية على مستوى الكلام أن ترتبط بعناصر خارجة عنها، أي هي عبارة عن قواعد سياقية Context_restricted Grammar أي قواعد مشترط تطبيقها بسياقات معينة، ونفترض أيضاً أنها بذلك لن تنتج كلاماً حاملاً معنى مطلق أو مجرد، بل إنه معنى يريد المتكلم أن يعنيه من جهة، وأن يعبر عن موقف محدد في إطار سياق محدد⁽¹⁶⁾، وهذا عين ما نبه إليه الدكتور المومني حين تحدث عن الجملة في النظر النحوي عند سيبويه بأنها ليست بنية جامدة، ولكنها حية ومتداولة بين متكلم ومخاطب، يراعي

❖ التواصل الشمي، وتمثل عملية الشم فعلاً عضوياً يقوم بتوصيل رسالة دلالية مخصصة، يترجمها الجهاز العصبي للإنسان، ويؤدي إلى سلوك استشاري يتمثل في الإقبال أو الإعراض بعد التمييز والتعرف، ولهذا قال سيبويه (شممت ريحا، فقلت: المسك). إن الإنسان يتواصل مع العالم ومع غيره من الأفراد بحاسة الشم، فتجده يشم روائح الزهور المتباينة وروائح المواد المختلفة الأولية منها والمصنوعة، ويشم روائح الطعام وألوانه المختلفة. فالشم وسيلة من وسائل المعرفة والتواصل، ولهذا اخترع الإنسان أنواعاً من العطور التي تقوم بوظيفة اجتماعية في التواصل بين الأفراد.

❖ التواصل الذوقي، ويتمثل في ألوان الطعام النية والمطبوخة التي يأكلها الإنسان مع غيره، وتخضع عملية التذوق مثل الشم واللمس إلى تواضع الجماعة، ويمثل الطعام من هذه الناحية نظاماً من العلامات التي تخضع لتواضع المجتمع واتفاقه ويتمثل ذلك في اختيار أنواع الطعام وطريقة الطهي والتناول والمحرم منه. وارتباطه بمناسبات ومواعيد معينة، وقول سيبويه (ذقت طعاماً، فقلت: العسل) يدخل في هذا الإطار أي وسائل للتواصل والمعرفة، وإذا تأملنا وجدنا أن العربية تستعمل الفعلين (شم وتذوق) بمعنى اختبار وأدرك. ومما يحضرنا في هذا المقام تحليل لأحد الباحثين الأمريكيين توماس هال Hall.T يرى فيه أن العوالم الحسية التي تتحرك داخلها الذات العربية تختلف عن غيرها من الذوات الثقافية الأخرى، ذلك أن العربي عادة ما يعتمد اللمس والشم في تواصله مع مخاطبه، إنه ينتج ويدرك من خلال هذه المعطيات بخلاف الإنسان الأمريكي⁽¹³⁾.

قال السيرافي عقب سوقه كلام الفاضل سيبويه: "وهذا كله مفهوم"⁽¹⁴⁾.

وهذه إشارة من الشارح إلى درجة بيان سيبويه عن أوجه ورود هذه الأقوال مقامياً، إذ لولاها لصار الأمر إلى الغموض والالتباس. ولهذا لم يحتج الشارح إلى مزيد كلام على بيان صاحب الكتاب، والله تعالى أعلم.

في تحليل لنص سيبويه على ضوء خصائص السياق عند هايمس:

وإذا علم هذا فليعلم أن تقدير المحذوف متوقف على التسييق الذي تحيل صورته المتعددة على معطيات من العالم الخارجي التداولي.

ويحدد (هايمس) للسياق خصائص يمكن تصنيفها على الشكل التالي⁽¹⁵⁾:

- 1- المرسل.
- 2- المتلقي.

- (12) ينظر، أوجين رادوسيب: **قوة التواصل اللاشعوري**، ضمن الفكر العربي المعاصر، ع112-113، ص136.
- (13) يراجع كتابه: p. La dimension cachée.
- (14) شرح الكتاب، ورقة، 1483.
- (15) Brown and Youle. Discourse analysis.P3.
- (16) ينظر، عياشي منذر: اللسانيات والدلالة، 69.
- (17) المومني محمد: **التركيب في كتاب سيبويه: نظام الجملة وأصول التقدير** (أطروحة بكلية الآداب بفاس): 4.

فيها المتكلم ما يأخذ باهتمام مخاطبه، فيقدم ما يجب تقديمه، ويؤخر ما يجب تأخيره، ويوجز إن كان المقام يقتضي الإيجاز، ويطنب إذا كان المقام يقتضي الإطناب، ومثل هذه السمات المميزة لطبيعة الكلام كثيرة في كتاب سيبويه⁽¹⁷⁾. وهذا الذي ذكرناه يشهد به كل من قرأ الكتاب ونظر فيه نظر المتفحص، وإن خالفنا في كثير من موارد وشعبه.

الهوامش:

- (1) - في النظريات الوظيفية تعد اللغة وسيلة للتواصل الاجتماعي أي نسقا رمزيا يؤدي مجموعة من الوظائف أهمها وظيفة التواصل، كما تفترض أن بنية اللغات الطبيعية لا يمكن أن ترصد خصائصها إلا بربط هذه البنية بوظيفة التواصل. يراجع للمزيد من المعلومات: أحمد المتوكّل: اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، منشورات عكاظ، 1989، ص13.
- (2) تمام حسان: **اللغة العربية، معناها ومبناها**، دار الثقافة الدار البيضاء، ط1، 337.
- (3) طه عبد الرحمن: **اللسان والميزان أو التكوثر العقلي**، المركز الثقافي العربي، ط1، 1998، 45.
- (4) سيبويه: **الكتاب**، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، ط3، 1988، 257/1.
- (5) ينظر، كريم زكي حسام الدين: **الإشارات الجسمية، دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل**، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1991، 7.
- (6) قال السيوطي مشيرا إلى الآلية القاعدية في التخاطب السليم الخالي من العوائق: "ومن ثم وضع للباس ما يزيله إذا خيف واستغني عن لحاق نحوه إذا أمن". ينظر، **الأشباه والنظائر**، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1403، 337/1.
- (7) السيرافي: **شرح الكتاب** (مخطوط خاص) ورقة، 127ب، ونفس الكلام نقله الشنتمري من غير نسبة مرة أخرى، ينظر، **النكت في تفسير كلام سيبويه وتبيين الخفي من لفظه وشرح أبياته وغريبه**، تحقيق رشيد بلحبيب، طبعة الأوقاف الرباط، 1999، 456/1.
- (8) ينظر في هذا الشأن: Edward Sapir. Anthropologie. **ENG.PRESS.1989.** p46.
- (9) يراجع للمزيد من المعلومات عن المعرفة المشتركة عمل سبيربر وويلسون: Mutual knowledge and relevance in theories of comprehension. In Smithe, N.V. ED. Mutual knowledge, new york, Academic press, 16-85.
- (10) طه عبد الرحمن: **التكوثر العقلي**، بتصرف، 152.
- (11) سيبويه: 130/2.